سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الثامن عشر: سورة الشعراء (٢١٣-٢٢٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/\#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعل مجالسنا التي نتدارس فيها كتابه سبب لكفارة ذنوبنا ولزيادة إيماننا ورضاه عنّا اللهم آمين.

نتدارس اليوم آيات في مجلسنا هذا آيات من ختام سورة الشعراء، وهذه السورة العظيمة فيها من العلوم ما يحتاجه كل مؤمن كبقية سور القرآن، فقد ابتدأت –كما هو معلوم– بالحروف المقطّعة إشارة إلى منزلة القرآن كآية عظيمة، وإشارة إلى أنّ الإيمان قريب في متناول من صدق لاجتماع آيات القرآن وصدق الرسول وحسن ما أتى به من أخبار وأوامر، والآيات الكونية التي حول العبد تدلّه دلالة واضحة.

وقد أتت السورة تبيّن أنّ لكل قوم رسول نبي أُرسل معه آية وحكت عنادهم، وحكت ردودهم على الأنبياء المرسلين وكيف أنّ الله عزّ وجلّ نصر أهل الإيمان وأظهرهم ورحمهم وهو العزيز الرحيم، وأهلك أهل الكفر وهو سبحانه وتعالى العزيز القهار.

وقد ذُكر في السورة –كما هو معلوم– سبعة من الأمم، وهؤلاء أهلكهم الله تهديدًا لقريش ومَن كان في حالهم مِن أجل الاعتبار من جهة أهل الكفر، والانتفاع من جهة أهل الإيمان، فذُكر العزيز الرحيم تسع مرات في خاتمة قصة كل نبي، وذكر سبعة أقوام.

ثم ختمت السورة بخطابات للنبي صلى الله عليه وسلم، نبدأ في جزء من هذه الخطابات في خاتمة السورة:

يقول الله عز وجل لنبيه –وسيتبيّن كيف أن الخطاب للنبي أصلا ولمن بعده تبعًا– **{فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}**

هذه خمسة أوامر ابتدأت بالنهي

١. {فلا تدع مع الله إلهًا أخر}
٢. {وأنذر عشيرتك}
٣. {واخفض جناحك}
٤. {وإن عصوك فقل إني بريء }
٥. {وتوكل على العزيز الرحيم}

قال الشيخ السعدي في هذه الآيات: "ينهى تعالى رسوله أصلا وأمته أسوة له في ذلك" يعني متابعين له.

"عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه شركا، **{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}** والنهي عن الشيء، أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له" إذن النبي صلى الله عليه وسلم خوطب بهذه الآية وهو الداعي له فكيف سيكون الخطاب لغيره؟! أكيد أن أمته يكون الخطاب لها أوضح وأكثر بيانًا، إذن خوطب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان لا يفعل ذلك فهو معصوم صلى الله

عليه وسلم، خوطب بهذا والمقصود غيره، وليتبين مباشرة هذا الأمر من بعد ذلك لما الله يقول: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}**، وهذه المنهي عنها في الآية أكبر جريمة يرتكبها الخلق على الإطلاق وهي جريمة الشرك.

وإذا كان الشرك منهي عنه إذن سيقابل ذلك التوحيد المأمور به، قال تعالى: **{فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}**، إذن نفهم بدلالة اللزوم وادعو إلى الله وحده.

قال الشيخ: "فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفا، ورجاء، وذلا وإنابة إليه في جميع الأوقات". إذن من لوازم التوحيد إخلاص العبادة لله، ويكون العابد محب لله، مقبل عليه وهو محب له لما يرى من آثار كمال صفاته ولما يرى من جميل إنعامه، والعابد أيضًا يقبل على ربه خائفًا منه لما يعتقد من عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، والعابد يُقبل على ربه راجيًا يرجو منه صلاح دينه ودنياه، ويكون ذليلًا منكسرًا منيبًا إليه في كل وقت.

قال الشيخ: "ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره" وهذه قاعدة عامة في الدين نبدأ بتكميل نفسنا ثم تكميل غيرنا، و(ثم) هنا لا تستلزم كمال تكميل نفسك، إنما كلما تعلّمت وفهمت وأقبلت، انقل هذا الخير للغير، وعلى هذا شواهد كثيرة ومنها سورة العصر فإن الناجين من الخُسر هم الذين آمنوا بنفسهم وعملوا الصالحات بأنفسهم لكنه لم يتوقف هذا عندهم إنما تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فكما آمنوا وعملوا الصالحات فكذلك دعوا غيرهم وكملوا غيرهم، وهذا يوافق جدا طبيعة الإنسان فإن العبد إذا اعتقد الحق وتيقّن به لابد أن يتكلم به، لابد أن يرغب في ترغيب غيره، فإن ما تقتنع به النفس وتحبه تدعو الغير له، وانظر لأهل الدنيا كيف لما يرغبون في شيء من دنياهم يُرغّبون غيرهم ويوصفونه بصفات كمال ترغّب الخلق فيه.

"ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره فقال: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقّهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمْره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان".

نبدأ أولًا ونفهم أن إنذار العشيرة الأقرب من المسؤوليات الأولى، من كان أقرب كان أحق بالإحسان الديني والدنيوي، وحتى في أمْر الصدقة، يعني امرأة ولها زوج وعندها صدقة، أو حتى زكان، والزوج محتاج، ستكون في حق الزوج هذه العطية صدقة وصلة، وطبعا هذا وراءه أحكام ليست موضوعنا، لكن موضوعنا أن الأقرب أولى بالإحسان، وهذا خلاف ما الناس عليه، فالناس في يومنا هذا يُحسنون للأبعد أكثر من إحسانهم للأقرب، والأقرب عند الله أولى.

وعلى كل حال الله عز وجل أخبر عن الأمر العام: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}**، لتكون من المنذرين على وجه العموم تنذر كل أحد، لكن هنا على وجه الخصوص {وأنذر عشيرتك الأقربين}.

قال الشيخ: "وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أُمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له (أحسن إلى قرابتك) فيكون هذا خصوصًا دالًّا على التأكيد، وزيادة الحق" لكن النبي صلى الله عليه وسلم أُمر بدعوة كل الخلق وإنذارهم جميعًا وخاصة أهله لما لهم من مقام وحق.

قال الشيخ: "فامتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمّم وخصّص، وذكّرهم ووعظهم" وهذا أمر معلوم فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كما في حديث عائشة وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم جميعًا في صحيح البخاري ومسلم، لما نزلت **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** قام النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فدعا قريش وجعل

ينادي يا بني فهر يا بني عدي، بمعنى ينادى بطون قريش حتى اجتمعوا، والرجل لما لم يكن يستطيع أن يصل يرسل من يسمع عنه، وكلهم اجتمعوا هم ونوّابهم وسمعوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو.

إذن النبي صلى الله عليه وسلم قام بما يجب عليه وبما أُمر به فأنذر عشيرته الأقربين.

"وذكرهم ووعظهم، ولم يُبْق صلى الله عليه وسلم من مقدوره شيئًا، من نصحهم، وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض".

ثم قيل للنبي **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** هذا الأمر الثالث، نهاه الله عز وجل عن دعوة غيره يعني في مضمونه أمره بالتوحيد، وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين، وأمره أن يخفض جناحه، وهنا خصوصية: **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**.

ولما نسمع كلمة خفض الجناح نفهم مباشرة المعاملة باللين، وهذا مناسب جدًّا بعد أمره بإنذار العشيرة الأقربين، فإنّ العشيرة لما خوطبوا بهذا افترقوا بين مؤمن وكافر، والمؤمنين قليل والكفار كثير، فأمره الله أن يجتمع مع المؤمنين، انقسموا إلى مؤمن وكافر سواء من العشيرة أو من غير العشيرة، فأمره الله بأمرين:

أما مع المؤمنين الذين اتبعوك فاخفض جناحك

أما مع من عصاك فتبرأ منه **{فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}**.

إذن مع المؤمنين اجتمع، ومع الكافرين تبرّأ.

"**{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل صلى الله عليه وسلم" إذن هذا الخفض يكون بمعنى اللين، واللين ضده في هذا المقام العسر، فيكون بعض الخلق مصابين بعسرٍ في أخلاقهم يحاسبون الناس على كل شيء، ويدقّقون على كل شأن، فلما يعاملوا المؤمنين لا تراهم أولئك اللينين إنما لا يتركون لهم شاردة ولا واردة إلا حاسبوهم عليها، وكل أمْر تعاملوا معهم بصورة الحق وأحيانًا حتى الظلم، لكن نفترض أنه الحق، ولم يتعاملوا مع المؤمنين بصورة الفضل، وتراهم دائمًا يشتكون الظلم وهم أهل الظلم!

ويرون أن هذا العسر من كمال شخصياتهم، ويعبّرون عن هذا العسر بالحساسية، أنهم شديدي الإحساس، والحقيقة هذا من عُسْر الأخلاق، فإنّ المؤمنين يحتاج بعضهم مع بعض أن يكونوا لينين، ما تتعاسر أخلاقهم، وإن ابتلي إنسان بطبع شديد في شأن من الشؤون فليهذبه، وإن ابتلي أحد بشخص له طبع شديد ومضطر أن يعامله فليلن معه وليهاوده ولا يقسوا عليه، حتى في تعديل الأخلاق لابد أن يكون الإنسان ليّن كما أُمرنا، هذا أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم جمعًا لكلمة المؤمنين وتوحيدًا للصف ودفعًا ودحرًا للعدو.

لكن نسأل الله عز وجل أن يعيننا على أنفسنا، فإنّ في هذا الزمان من صور الهوى المتّبع عند الناس هواهم في طريقة التعامل مع الخلق، وإذا أتيت فأمرت أن اخفض جناحك رأوا أن أمرنا لهم بخفض الجناح معناه كسر جناحهم وذلهم، والحقيقة أن عزّ عند رب العالمين.

أسأل الله أن يهذب أخلاقنا ويحسن نفوسنا ويجعلنا ممن خفض جناحه للمؤمنين.

قال: "بلين جانبك ولطف خطابك لهم" ولطف الخطاب مع القريبين والبعيدين من القربة إلى الله، وقد ابتلينا أيضًا بالتبجح في الكلام على أن هذه جراءة وعلى أن هذه من آثار قوة الشخصية، وأصبح الحياء مُعاب وأصبح لطيف الكلام على الهوى! الذي نحبه جدا ونميل له هو الذي نتلاطف معه، وأما المؤمنين ورباط الإيمان لا يدعونا إلى لُطف القول، والحقيقة مع الأقرب ومع الأبعد مطلوب منا أن نكون لطيفي القول متقربين إلى الله بذلك، نحن مأمورين بذلك متقربين إلى الله إن صدقنا نكون قريبين إلى الله بذلك.

"وتوددك، وتحببك إليهم" معناه تلين المعاملة وتكون لطيف الكلام والخطاب وتتودد لهم في كل طريق يصلح فيه التودد، تخدمهم، تساعدهم، تهديهم، تبتسم في وجوههم، الشاهد أنك تتودد لهم.

قال: "وحسن خلقك" وهذه كلمة عامة تتصل بكل أعمالنا مع الخلق، ونلاحظ أن هذا كله أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم. "والإحسان التام بهم، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك" ونحن جميعًا نشهد أنه قد فعل وكان النبي صلى الله عليه وسلم شامة في جبين التاريخ يشهد القريب والبعيد، المسلم والكافر بكمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم، وهذا كله من فضل الله، والله عز وجل قال: **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}**[1] فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم أكمل الأخلاق التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد، والمشكلة أننا في تفكيرنا نرى وجهات نظرنا في إظهار الحق مقدمة على الحق نفسه!

أحيانًا نرى من أمامنا أخطأ فنكون كالسيف عليه ونرى خلاف ذلك أن هذا تهاون في إظهار الحق، وأن هذا عدم تعظيم للحق، والحق ليس كما يقولون إنما هذا من آثار اتباع الهوى؛ لأنّ الأمر لو فكرنا فيه سيكون فيه شبه من فعل الخوارج، الخوارج نظروا لأهل الإسلام ووجدوهم على معصية قالوا هؤلاء لا ينفع معهم إلا السيف فخرجوا عليهم بسيوفهم!

الآن الناس المستقيمين الصُلاح الذين يريدون الإصلاح يخرجون على الناس بالسيوف لكن بسيوف ألسنتهم، وتراهم يعتدون ويعتدون ولا يقدّرون أنّ هذا فيه مخالفة للشرع بل يرون أن مثل هذا نصرة للدين.

نحن نتكلم عن حال المؤمنين ونقول: هكذا أمْر الله عز وجل رسوله أن يعامل المؤمنين.

يقول الشيخ: "فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلًّا على المسلمين" عالة يؤذيهم!

"شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب فظ القول، فظيعه؟" هل هذا يليق؟! الجواب واضح أن هذا لا يليق بالمؤمن، العذر دائمًا مكرر أننا نريد أن ننكر المنكر.

يقول الشيخ: "وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، والحق أن من رأى بعين البصيرة رأى هذا أمرًا واضحا في هذه المعاملة من تحصيل المفاسد وتعطيل المصالح ما لا يحتسبه كثير من الخلق" وقد وصل الحال أن نرى ما نراه اليوم من آثار هذه المعاملة التي بلغت بالشباب إلى حد الخروج.

---

[1] آل عمران: ١٥٩

وفيما نُقل من أحد له صلة بهذه الأحداث التي تحصل والجرائم التي تحصل من بعض الشباب أنه في أحد الدول الإسلامية وليست بعيدة اجتمعوا هؤلاء الشباب على أحد ارتكب منكر –هم رأوه فظيع– الشاهد أنهم قتلوه وأحرقوه! ثم لما قال أحدهم للآخر: صوروه لكي يخافوا الناس ويرتعبوا ولا يرتبكوا المنكر مرة أخرى، سمعت جوابًا عجيبًا! قالوا: لن نصوره التصوير حرام! فكل هذه الفظائع التي ارتكبوها التي تدلّ على شراسة أخلاقهم التي بلغت الغاية، والحقيقة على الجهل والتغرير بهم هذا شأن آخر، لكن أمام هذا انظر إلى قلة الفقه، يرون التصوير حرام ولا يرون قتل المؤمن المسلم الذي إسلامه يقين وغير ذلك ليس بيقين سواء كفره أو نفاقه ليس بيقين عندهم، يكون هذه حالت فيقتلونه، يكون هذا حرام وهذا ليس حرام!

بدايات رآها المجتمع وكانت موجودة من شراسة الأخلاق والمطالبة بحقوق النفْس، ثم تحولت إلى هذه الصورة، حصلت في هذه المعاملة من المفاسد ما حصل، والله لا يعرف هذا إلا من عاش ورأى البدايات ورأى النتائج.

ونحن لا نقصد أن كل حالة حصل فيها شراسة تحولت إلى هذا الشيء الفظيع لكن المقصود أن هذه بدايات خطيرة لابد فيها من المراجعة، وأمر آخر المداهنة في دين الله هذا أمر آخر تمامًا لابد من فهمه قبل الحكم على اللين بأنه مداهنة في دين الله.

وأتى الآن بمسألة في غاية الخطورة، قال: "ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة" هذا الشرس في طباعه الذي ينصح بطريقة هجومية ينظر للثاني الذي يقول ليس بهذه الطريقة ونحن ننصح في دين الله ونأمر بالمعروف لكن نكون لينين ونكون هينين وحتى لما نبين خطأهم نبينه بطريقة صحيحة، فشرس الأخلاق يرى أن الذي يقول هذا الكلام أنه منافق ومداهن ويحتقره ويقول هذا مداهن وهذا منافق!

إذن يرى نفسه كاملًا! يقول الشيخ: "وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له" والله نشهد إنه من الجهل ومن خداع الشيطان.

"ولهذا قال الله لرسوله: **{فَإِنْ عَصَوْكَ}** في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه، وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم، أن قوله **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ}** للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا والله أعلم".

وهذا معنى للآية، يعني فإن عصوك هؤلاء المؤمنين فقل إني بريء من هذه الأعمال ولا أقبلها، ولا يُظَنّ أنّ خفض الجناح معناه قبولنا لكل شيء، إنما نتبرأ مما يجب أن نتبرأ منه ونتبرأ من العمل كما هو ظاهر في الآية؛ لأنّ الله قال: **{فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}**.

وهناك وجه آخر للآية أن **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** وتبرأ من الكافرين، هذا وجه ذكره المفسرين وهذا وجه آخر ذكره المفسرين، والأقرب والله أعلم ما اختاره الشيخ السعدي في تفسيره.

ثم أتى بعد ذلك الأمر الخامس: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}** وهذا الاسم كما تبين لنا تكرر في هذه السورة وهذه المرة التاسعة التي يُذكر فيها.

قال الشيخ: "أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}**" من أجل أن تفعل ما أمرت به من عبادة الله وحده ومن دعوة الأقربين ومن خفض الجناح للمؤمنين ومن التبرّؤ من الأعمال الباطلة التوكل على الله.

نأتي أولًا للتوكل فنقول: "التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى"، إذن التوكل في أصله عمل قلبي، ومعناه أن القلب يكون له قِبلة أثناء قضائه لشؤونه، قبلة يتّجه إليها، وباب يقف عنده، ومعتمد يعتمد عليه، وركن شديد يأوي إليه، ويكون عنده مشاعر أنه في غاية الطمأنينة، فهذا المعتمد على الله "في جلب المنافع ودفع المضار يفعل ذلك مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه" يحسن الظن بالله أن مطلوبه يتحقق له، وأيًّا كان مطلوبه فإن الله على كل شيء قدير، وهو حكيم سبحانه وتعالى، فإن لم يتحقق عين المطلوب تحقق المقصود ولو لم يتحقق عين المطلوب، فإن العبد يريد السعادة بكذا وكذا فيجلب الله له السعادة ويحقق السعادة لكن ليس هو الباب الذي طلبه.

فتوكل على الله فإنه عزيز رحيم، وهذان الاسمان مناسبان جدًا للتوكل على الله خصوصًا في الشؤون التي يُقضى فيها أمر للمسلمين وأمر ينفع العبد وينفع مجتمعه، "فإنه عزيز بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك". يعني ربنا عزيز قاهر، إذا قضى للعبد هذا الشيء أعطاه، ولو اجتمعوا على المنع، وهو سبحانه وتعالى رحيم يحسن إلى خلقه وبرحمته وحكمته سبحانه وتعالى يختار لهم الأصلح ويقربهم منه.

"ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان" والذي ييسر عليك أن تتوكل أن تعتقد قربه ونظره إليك، فكأنك تراه.

إذن الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول في منزل الإحسان يساعد على التوكل.

"**{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}** أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك" ومنها سمي القيام قيامًا، فأصبح كالمصطلح على الصلاة، وهذا وقت القيام، ومن أركان الصلاة القيام، إذن **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** يعني في صلاتك، وتتقلب راكعًا وساجدًا.

وهنا: **{فِي السَّاجِدِينَ}** فمن المعاني كما ذكر عن مقاتل وأبو حنيفة، أن مقاتل سأل أبو حنيفة هل تذكر في القرآن آية في الجماعة؟ فقال أبو حنيفة: لا أستحضر، فقال مقاتل: **{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**، في الساجدين يعني كأنه مع الساجدين، وهذا معنى لطيف يناسب **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** كونه يجتمع معهم للصلوات وقد يحصل ما يحصل في هذه الاجتماعات، فجعلها الله عز وجل أحد المواطن التي يراه فيها لما يقوم ولما يتقلّب مع الساجدين.

ويبقى على المعنى العام تقلّبك راكعًا وساجدًا لا يمنع.

ثم قال الشيخ السعدي: "خصّها بالذكر لفضلها وشرفها؛ ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع وذل، وأكملها، وبتكميلها، يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره". يفيدنا هذا في مسألة التوكل، كأنه رابط بين التوكل والصلاة، ما الرابط بين التوكل والصلاة؟

إذا استحضر الإنسان قُرب ربه في الصلاة امتلأ قلبه إيمان، وقع الخشوع وقع الذلّ اكتمل الصلاة، يخرج من الصلاة ومعه إيمان ويقين وثقة فإنه كان يكلم ربه في الصلاة وكان يناجيه وكان يعلم أنه قِبَله ويعلم أنه يجيبه، فالعبد يقول **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** والرب يقول حمدني عبدي، ويعلم أنه يسجد فيكون أقرب ما يكون لربه فيخرج من الصلاة وقلبه قد امتلأ يقينًا بربه فيسهل بذلك التوكل.

ولذلك من سأل: ما مسلك التوكل؟ من أين آتي به وأقويه؟ فالجواب في هذه الآيات: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}**، العزيز الرحيم **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}** ويعلم حالك لما تتقلب في الساجدين.

ثم قال: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** وهنا أقوال وهنا أحوال.

"**{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}** لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها، **{الْعَلِيمُ}** الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة" والله أمر رسوله أن لا يدعو معه أحد سبحانه وتعالى وأن ينذر وأن يخفض وأن يتبرأ وأن يتوكل، فمجموع هذا كله يستلزم أمور تُقال من الإنذار ومن التبرؤ ومن دعاء الله وحده وأمور تُعلم من دعاء الله وحده وعدم دعاء غير الله؛ لأن دعاء الله يُسمع ويكون في القلب، ومِن خفْض الجناح ومن التوكل، هذا كله يُعلم.

الخمسة أوامر السابقة بعدما أمر الله بها قال لنبيه ولنا: **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}** الذي يسمع أقوالكم، **{الْعَلِيمُ}** الذي يعلم أحوالكم، وأنتم بين عمل بالقلب وعمل باللسان.

"فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم، والعزم، والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان". فيتقرّب لربه وهو متيقّن أنه يراه.

ثم أتى ختام السورة عن بعض ما قيل في حق النبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بأنه كاهن و بأنه شاعر، فقال تعالى: **{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ}** ليس استفهامًا إنما هذا غاية التقرير أي تعال لأنبئكم نبأ يقينيًا.

"هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمدا ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر.

فقال: **{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ}** أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين" وإذا عرفتم على من تنزّل الشياطين ستعرفون أن النبي صفاته تكفيكم أن تكون سببًا للإيمان، فقط صفاته، ولذلك في سورة الحديد: **{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}**[٢]، يعني وهذا الرسول صاحب الصفات الكاملة التي يميّزها من كان صادقًا كما أتى الصحابي ونظر إلى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمن وقال إن وجهك ليس بوجه كذاب!

فكان سببًا لإيمانه، ومن كان عدلًا محقًّا رأى صفات النبي فآمن، لكن لما يكون هناك حسدة ويسمعون عن كمال الرسول صلى الله عليه وسلم وتكون قلوبهم حاسدة ويريدون أن يتميزوا على الخلق يكون ردهم أنهم يعيبون في النبي صلى الله عليه وسلم

[٢] الحديد:٨

ويقللون من قيمته يظنون أن فعلهم سيغطي وجه الشمس! خابوا وخسروا، بل ذكره صلى الله عليه وسلم مرفوع إلى قيام الساعة وصفاته شاهدة على ذلك.

معنى ذلك أن الخلق يظهرون بصفاتهم، وإذا رأيت صفات النبي آمنت به، وإذا رأيت صفات الأفّاكين الآثمين عرفت على من تنزل الشياطين.

"**{تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ}** أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، **{أَثِيمٍ}** في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم.

وقد مرّ معنا الإفك بمعنى قلب الحقائق، وهنا بمعنى كثير الكذب، كثير قول الزور والإفك بالباطل، فإذن يقلب الحقائق، وكثير فعله من هذا النوع وأثيم في فعله، يعني كثير المعاصي، يكذب ويعصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين وتناسب حاله حالهم، وهذا أمر مشهور في كون أنّ الشياطين قرينة من كانت أحواله تساعد الشياطين على قُربه، وكما تدارسنا في سورة مريم: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}**[٣]، فهي لا تنطبق إلا على هؤلاء الكافرين الكاذبين.

ما وصفهم؟ **{يُلْقُونَ}** عليه **{السَّمْعَ}** الذي يسترقونه من السماء، **{وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ}** أي: أكثر ما يلقون إليه كذب فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل". يعني سواء كان الكذاب هو الشيطان أو الكذاب هو الكاهن، سواء. "فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب، وصدق اللهجة، ونزاهة الأفعال من المحرم".

وهم يعلمون ذلك جيدا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقلبه البارّ ولهجته صادقة، وكانت أمّنا خديجة كما هو معلوم في قصة بدء الوحي في البخاري وكيف أنه لما أتاها وقال لها ((**زملوني زملوني**)) قالت: والله لا يخزيك الله إنك لتحمل الكلّ.. وعدّدت من صفات برّ قلبه وصدق لهجته ونزاهة أفعاله عن المحرم، ومثل هذا يُحفظ وينشر ونعيده لأبنائنا ونبينه لهم ونربيهم عليه، ونجعل النبي صلى الله عليه وسلم موقّرًا في قلوبهم؛ لأن من عرف الصفات عرف من أين تأتي الحقائق.

"والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروسا محفوظا، مشتملا على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي –يا أهل العقول– هذا وأولئك؟ وهل يشتبهان، إلا على مجنون، لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟".

لكن القوم لا يفكرون ويتبعون هواهم.

"فلما نزّهه عن نزول الشياطين عليه، برّأه أيضا من الشعر فقال: **{وَالشُّعَرَاءُ}** أي: هل أنبئكم أيضا عن حالة الشعراء" هم تهمتين مختلفتين الكهانة والشعراء تهمة أخرى، وربما اقترنت معًا لأنّ بعض الشعراء كذبًا يروح أن شعره يأتيه من الجانّ، فانتشر عند الناس أن الكهانة والشعر معًا، والحقيقة أن الشعر ملكة يعطيها الله عز وجل لخلقه ويفعلون بهذه الملكة ما تمتلئ به قلوبهم سواء من الإيمان أو غيره.

---

[٣] مريم: ٨٣

"**{وَالشُّعَرَاءُ}** أي: هل أنبئكم أيضا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم" هذه حالهم أنهم قادة وهناك أتباع لهم، لكن من أتباعهم؟ الغاوون، فذُكروا هم وذُكرت صفتهم بذكر أتباعهم، فإذا كان أتباعهم غاوون فأكيد هم لن يكونوا راشدين.

"**{يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}** عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى" يتركون الهدى ويذهبون للغي والردى.

"فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد" لما عرفت قُرناءهم عرفت مَن هم، هم فاسدين يتبعهم فاسدين.

"**{أَلَمْ تَرَ}** غوايتهم وشدة ضلالهم **{أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ}**" الواد كما هو معروف الذي يكون بين جبلين، يهيمون كأنهم شُبّهوا بأنك تذهب إلى الرعي والأودية يكون فيها أردأ أنواع الرعي، فكأنهم يرعون في الوادي وليس في سفوح الجبال، دليل على أنهم في رذائل الأحوال يتكلمون.

"من أودية الشعر، **{يَهِيمُونَ}** فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

{وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ} أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم" لهم قول ولهم فعل.

"فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غراما، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم".

وقد اختصر علينا الشيخ مفهوم عظيم في بيان كذبهم، أنهم يقولون ما لا يفعلون، ونعود مرة أخرى للشيء الذي من أجله أتى الخبر عن هؤلاء.

"انظر هل يطابق حالة الرسول صلى الله عليه وسلم، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد" القوم رجحاء العقول أبو بكر رضي الله عنه وعمر وهؤلاء القوم الذين ظهر رجحان عقولهم فهم أسياد في أقوامهم! انظر إلى كل راشد ومهتد كيف يتبع النبي صلى الله عليه وسلم!

"الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله ولم تخالف أقواله أفعاله؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له".

وهذا يشهد عليه كل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكل الأحوال التي نعرفها عنه، بل حتى أحواله الخاصة في بيته قد بلغنا منها الكثير الذي نشهد بأنه صلى الله عليه وسلم لا يقول أبدًا قولًا إلا يفعله ولا ينهى عن نهي إلا ينتهي عنه.

"فهل تناسب حاله، حالة الشعراء، أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال".

ولذا من الضروري جدًا نشْر صفات النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله وأخلاقه ومواقفه فإنّ هذا باب عظيم من باب الدعوى، أُهمل عند كثير من أهل السنة والحقيقة السبب أننا دائمًا متطرفين في مشاعرنا، يعني وجدنا الصوفية يتكلمون عن النبي ويتغزلون ويكذبون بغير الحق، نحن أخذنا الطرف الثاني تمامًا وتكتمنا على صفات النبي وترانا لا ننقل ذلك عنه ولا تسمع عن دراسة

الشمائل، ألا مؤخرًا، موجودة الحمدلله دراسة الشمائل والكتب موجودة، لكن المقصود هذا يجب أن يكون أكثر ما يهتم به النساء خاصة، لأنهم يأتون لهؤلاء الصغار ويربونهم فيحتاجون أن يكونوا ممتلئين بالقصص الحقيقية والأوصاف الجميلة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويبقوا ليلهم ونهارهم يصفون لهم النبي فيربونهم على محبته فيكون هو وصحابته الكرام قدوتهم.

"ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله" إذن هذه الملكة بنفسها ليست منتقدة إنما في أي شيء تستخدمها على حسب ما يحمل القلب، وهكذا كل ملكة يهبها الله لخلقه، الإشكال أين تستخدمها؟

"استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحا، وأكثر من ذكر الله" الإكثار من ذكر الله علاقته واضحة بالشعر، فإن من أكثر من ذكر الله بعد معرفة الله جرى في شعره آثار هذا الذكر، ومن عرف حق الله انتصر لله، ولذلك قال:

"وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم" وهنا الانتصار يكون بردّ أفعالهم بهذه الملكة الشعرية، وهذا عند العرب له شأن عظيم ولازال، فإن بيت الشعر من كلام العرب يدور على الألسنة فيكفي الإنسان في وصف حقيقة من كلام كثير ببيت شعر، وهذا معلوم وإن ضعفت اللغة عندنا وإن حصل نقص، لكن لا زال هذا الشيء مميز واضح، ممكن اختصار مفاهيم كثيرة في بيت شعر، فالناس يفرحون ببيت يجدونه يعبّر عن خوالجهم وعن ما تكنه أنفسهم، فلذا أهل الإيمان لما تقوى قريحتهم وتمتلئ قلوبهم علم تجدهم يقولون ما ينفع المؤمنين، والله عز وجل استثناهم، بل أصبح شعرهم كما قال الشيخ:

"فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، وآثار إيمانهم" إذن لازلنا نقول ليست المهجوّه هي الملكة إنما استعمالها.

لماذا أصبح من الأعمال الصالحة؟ "لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذب عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة" ولذلك من أحسن ما نفعله مع أبنائنا هو تحفظيهم للمنظومات العلمية، وهذه المنظومات العلمية تبيّن العلوم النافعة وتحث على الاخلاق الفاضلة، فهي أبيات شعر جمعت عقائد أهل السنة والجماعة ويسيرة في الحفظ، وسهلة لأنها منظومة، وفي نفس الوقت ترحم أبناءنا الصغار وذرارينا من هذه الأناشيد التي انتشرت في القنوات الذي يقولون أنها إسلامية وأنها تخاطب الطفل المسلم وهي مليئة بأمور من الصعب تلخيصها لكن يكفي أن نقول أنها تخالف في مجملها السموّ و العلو القيمي الإسلامي، فهم يدخلون فيما نسميه بـ (فقّاعة القيم) ويظهرون أنهم يدافعون عن القيم وهم يطعنون في الخلف قيم أخرى وتكون القيم المطعونة أهم من القيم الظاهرة.

على كل حال هذا موضوع طويل، نقول إن من عطية الله هذا الشعر وأن المنظومات العلمية اليوم من أكثر العطايا التي تُركت وراء هؤلاء العلماء، وانظروا حائية ابن أبي داود، وانظروا لامية ابن تيمية، وانظروا نونية ابن القيم، تعرفون هذا الأمر جيدًا، وما أحسن أن تقام المسابقات حول هذه المنظومات ليحفظها الصغار سواء كان على مستوى المدارس أو على مستوى البيوت والأنشطة والأندية التي يجتمع فيها هؤلاء، أسأل الله أن يجعلها نصيحة في مكانها تنفعنا وتنفع المؤمنين.

"فقال: **{إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}**" وهذا تهديد لأهل الكفر خُتمت به السورة عودًا على مطلع السورة في كونهم ردّوا الإيمان ولم يلقوه، فيقال ستروا هذا في نهاية أمركم.

"وينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها، ولا حقا إلا استوفاه"

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى اللقاء بفضل الله..